الكتاب وتحرير البشرية

د. عبدالله سلقيني*

الحمدلله منزل الكتاب، وهازم الأحزاب، والصلاة والسلام على نبينا محمد وآله وصحبه، وبعد : فهذه كلمات موجزة عن الكتاب، نخلص منها إلى أهم كتاب على ظهر الأرض. الكتاب الذي حرر البشرية من الذل والعبودية للبشر، كما حرر العقل البشري من الانحراف والشطط والخرافة.

الأصل اللغوي لمادة كتب :

قال الجوهري : الكتاب معروف، والجمع كُتُبٌ وكُتْبٌ. وقد كتبت كَتْباً وكتاباً وكتابةً. والكتاب : الفرض والحكم والقَدَر. قال الجعدي :

يا ابنة عمي كتاب الله أخرجني عنكم وهل أمنعَنَّ الله ما فعلا

قال ابن الأعرابي : الكاتب عندهم : العالم، قال تعالى : ﴿**أم عندهم الغيب فهم يكتبون**﴾(١).... وتقول : أكتبني هذه القصيدة، أي أَمْلِها عليَّ. وأكتبت القربة أيضاً شددتها بالوكاء؛ وكذلك كتبتها كَتباً، فهي مُكتب وكتيب. واكتَتَبْتُ الكتاب، أي كتبته. ومنه قوله تعالى : ﴿**اكتتبها فهي تملى عليه**﴾(٢) وتقول أيضاً : اكتتب الرجل؛ إذا كتب نفسه في ديوان السلطان.

والمُكْتب : الذي يعلم الكتابة. قال الحسن : كان الحجاج مُكتباً بالطائف، يعني معلماً..(٣)

---

* رئيس قسم أصول الدين في كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالإحساء.

(١) سورة الطور : ٤١، والقلم: ٤٧.

(٢) سورة الفرقان : ٥

(٣) الصحاح ٢٠٨/١ الطبعة الثانية ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م، وانظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٥٨/١ نشر دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ـ القاهرة، وانظر القاموس المحيط.

دور الكتاب في الهداية والإرشاد :

وبعد أن عرفنا الأصل اللغوي لمادة «كتب» نقول : إن الكتاب من أهم أدوات الثقافة وأعمقها أثراً في نشر المعرفة التي هي قوام شخصيتنا في الحياة.

والكتاب منذ بدء الخليقة له دوره المعروف في الهداية والإرشاد، قال الله تعالى : ﴿**كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، وما اختلف فيه إلا الذين أُوتُوه من بعد ما جاءتهم البينات بغياً بينهم، فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم**﴾(١)

وقال سبحانه : ﴿**ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسل، وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس..**﴾(٢)

وقال سبحانه : ﴿**وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبني إسرائيل ألا تتخذوا من دوني وكيلا**﴾(٣). وقال سبحانه : ﴿**ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون**﴾(٤). وقال تعالى : ﴿**وقفينا على آثارهم بعيسى بن مريم مصدقاً لما بين يديه من التوراة، وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونورٌ، ومصدقاً لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين**﴾(٥) ثم قال سبحانه مخاطباً نبيه محمداً ـ ﷺ ـ : ﴿**وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه، فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق...**﴾(٦)

---

(١) سورة البقرة : ٢١٣.

(٢) سورة البقرة : ٨٧.

(٣) سورة الإسراء : ٢.

(٤) سورة الأنبياء : ١٠٥.

(٥) سورة المائدة : ٤٦.

(٦) سورة المائدة : ٤٨، وانظر «في ظلال القرآن» لسيد قطب ٦/٨٩٥ : استقامة الحياة البشرية بالكتاب الذي أنزله الله.

متى عرف الإنسان الكتابة ؟

هناك بعض علماء التاريخ من المعاصرين يقسمون مجرى التاريخ الإنسانى إلى قسمين رئيسيين؛ هما عصر ما قبل التاريخ، والعصر التاريخي. والحد الفاصل بين العهدين اختراع الكتابة، أي عندما اخترع الإنسان نظاماً كتابياً يسجل بواسطته أخباره وأعماله ومنجزاته، ويسلمها للأجيال اللاحقة. كما يرون ـــ من وجهة نظرهم ـ أن إنسان ما قبل التاريخ ترك كثيراً من السجلات المكتوبة على جدران الكهوف، غير أن هذه السجلات أقرب إلى الصور والنقش منها إلى الكتابة، إذ لا يمكن اعتبار الصور التي خلفها إنسان ما قبل التاريخ في كهوف التاميرا في إسبانيا نظاماً كتابياً بحال من الأحوال. ولذلك درس ويدرس المؤرخون وعلماء الآثار أقوام ما قبل التاريخ من خلال المكتشفات المادية التي خلفوها. أما في العصور التاريخية، فيستند المؤرخون إلى السجلات والمحفوظات المكتوبة التي خلفها إنسان ذلك العهد إلى جانب المخلفات المادية(١).

ونحن لا نرى من وجهة نظرنا أن هناك عصراً نستطيع أن نسميه عصر ما قبل التاريخ، وآخر نسميه العصر التاريخي، إلا إذا أردنا بذلك أن هناك عهوداً تاريخية في حياة الإنسان غائبة في مجاهل التاريخ. وهذه العهود الغائبة في التاريخ قد سماها القرآن غيباً؛ لأنها مغيبة عنا في حقيقتها، قال تعالى : بعد أن ذكر جانباً من قصة آل عمران ومريم ـ عليها السلام ـ : ﴿**ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك، وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم، وما كنت لديهم إذ يختصمون**﴾(٢)

وقص القرآن الكريم أهم الجوانب المشرقة من تلك العهود الغائبة لنتبعها ونقتدي بها، قال تعالى : ﴿**أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده**﴾(٣)، كما

---

(١) انظر «المكتبات في العالم» للدكتور محمد ماهر حماده ص٢٩ ـ ٣٠.

(٢) سورة آل عمران : ٤٤.

(٣) سورة الأنعام : ٩٠، وانظر «في ظلال القرآن» ١١٣٧/٧، ١١٤٤.

ذكر القرآن أيضا بعضاً من جوانب عهودها المظلمة الغارقة في الظلم والتسلط والطغيان، لنحذر تلك الجوانب ونبتعد عنها، قال تعالى : ﴿**تلك آيات الكتاب المبين. نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون، إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبِّح أبناءهم ويستحيي نساءهم، إنه كان من المفسدين..**﴾(١)

وإذا كان بعضهم يرى أن بدايات الكتابة غير معروفة تماماً، فإننا نقول : إن العلم بالكائنات التي يحتاجها الإنسان قد علمها الله له منذ أن خلق ـ سبحانه ـ الإنسان الأول آدم ـ عليه السلام ـ قال تعالى : ﴿**وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين. قالوا : سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا، إنك أنت العليم الحكيم**﴾(٢)

وقد خص الله هذا المخلوق الإنسانى بعلم الكتابة وقراءة المكتوب، وهذه النعمة من أعظم نعم الله عليه. قال سبحانه في أول آيات أنزلها على رسوله محمد ﷺ : ﴿**اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم**﴾(٣)

الكتاب ويقظة الشعوب :

الكتاب هو سجل المعرفة في صورتها الكاملة، وبواسطته نتعلم ونكسب معارفنا ونصحح أفكارنا. وهو فضلاً عن ذلك يساعد على انتشار الأفكار الحرة، ويستنهض الهمم، ويقوي العزائم، ويزيد خبراتنا بالحياة.

والواقع أن مهمة الكتاب ليست مقصورة على تعلم القراءة ونشر العلوم والمعارف وحسب، بل إن رسالته أكبر شأناً وأعظم أثراً، فالكتب تهيىء أذهان

---

(١) سورة القصص : ٢ ـ ٤.

(٢) سورة البقرة : ٣١، وانظر تفسير الطبري ١/ ١٧٠، وانظر الروايات في ذلك.

(٣) سورة العلق : ١ ـ ٤، وانظر تعليم الإنسان الكتابة بواسطة القلم في تفسير «غرائب القرآن ورغائب الفرقان» لنظام الدين الحسن بن محمد النيسابوري ـ بهامش تفسير الطبري ـ ٣٠/ ١٢٥.

الشعوب لليقظة، وتشعل في قلوب الضعفاء قوى الخير والحق، وتدفع بالناس إلى الحرية والانطلاق، ثم هي تحمي أفكار المفكرين لتستمر دائماً شعلة وضّاءة تنير للناس الطريق نحو التقدم والرفعة والمجد.

وكما يُعَدّ الكتاب سيد مصادر المعرفة، فإنه يعدّ أيضاً خير الأصدقاء، إذ بوسعك أن تأنس إليه، وتنتفع به في كل وقت؛ بالليل أو النهار، دون أن يمل عشرتك له وصحبتك إياه، وفي أثناء هذه الصحبة يستطيع الكتاب أن يساعدك في الوقوف على تاريخ الإنسان، وكفاحه في سبيل عالم جميل نسعد فيه بالحرية والسلام، كما يستطيع أن يطلعك على مجريات الحوادث والاكتشافات والاختراعات الحديثة، ويطوف بك وأنت جالس في مكانك في أقطار العالم، فترى صوراً عديدة للناس في مختلف بيئاتهم وتباين أجناسهم وعاداتهم وتقاليدهم، هذا إلى جانب ما يزودك به من معلومات وحقائق توسع المدارك وتبعث في النفس البهجة والسرور.

كل هذا تستطيع أن تحصل عليه من هذا الصديق الوفي الأمين أينما كنت وحيثما ذهبت. وهو في هذا يختلف عن غيره من وسائل الثقافة الأخرى المرئية والمسموعة؛ لأنه يتميز بطواعية لا توجد في غيره من الوسائل الأخرى(١).

قيمة الكتاب مرتبطة بمؤلفه وموضوعه :

ترتبط أهمية الكتاب بكاتبه وموضوعه؛ فيزداد الاهتمام بالكتاب لزيادة علم كاتبه والثقة به وبنزاهته وعدم تحيزه، ويزهد الناس الأسوياء عن كتاب يعلمون في كاتبه الجهل والتفاهة، أو يعلمون أن كاتبه يريد من كتابه غرضاً خاصاً، ينزع فيه إلى مصلحة شخصية، أو يتحيز فيه إلى طائفة أو هوى، ناهيك عن كتاب ينزل فيه صاحبه إلى مستوى الجنس والشهوات الحيوانية، ليشغل الناس بالشهوات البهيمية عن المثل الإنسانية العليا، التي يكون بها الإنسان إنساناً ينشىء حضارة سليمة. يريد صاحب مثل هذه الأفكار أن يهبط بالإنسان إلى الحضيض، وينشىء حضارة ــ إن صح التعبير أن نسميها

---

(١) «المكتبات ورسالتها» لحسن رشاد ص١١ ـ ١٢.

حضارة ـ مادية يكثر فيها إنتاج الأعلاف البهيمية والسلع، ويكثر فيها تصنيع الأسلحة الفتاكة لتتسلط فئة على فئة، أو طائفة على طائفة لتصريف إنتاجها، والسيطرة على موارد الثروة بأبخس الأسعار : ﴿**والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً**﴾(١) وإننا نقول للعالم أجمع : إن الكتاب الحق والميزان العدل لسائر الكتب، الكتاب الذي يبين رشد الكتب جميعاً من زيفها هو القرآن، كلام الله : ﴿**وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله...**﴾(٢) إنه كتاب ﴿**لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد**﴾(٣)، فيه الدليل على أنه من عند الله وليس من صنع البشر، حيث تحدى الإنس والجن على أن يأتوا بمثله إن ارتابوا فيه أو زعموا أنه من صنع محمد ﷺ ـ فعجزوا : ﴿**قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً**﴾(٤)، ثم تحداهم أن يأتوا بعشر سور مثله مفتريات إن زعموا أنه مفترى : ﴿**أم يقولون افتراه قل: فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين**﴾(٥)، ثم تحداهم أن يأتوا بسورة واحدة مثله : ﴿**وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين. فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين**﴾ (٦)، ﴿**أم يقولون افتراه، قل : فأتوا بسورة مثله، وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين. بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله، كذلك كذب الذين من قبلهم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين**﴾(٧).

---

(١) سورة النساء : ٢٧.
(٢) سورة التوبة : ٦.
(٣) سورة فصلت : ٤٢.
(٤) سورة الإسراء : ٨٨.
(٥) سورة هود : ١٣.
(٦) سورة البقره : ٢٣ ـ ٢٤.
(٧) سورة يونس : ٣٨ ـ ٣٩.

أهم أهداف كتاب الله :

الهدف العام للقرآن هو الهداية أي الدلالة الموصلة للمقصود، ﴿**الم. ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين**﴾(١) وقد أجمع المفكرون على أن الهدف الجامع لكل أهداف الناس هو السعادة، ولا تتحقق السعادة إلا بالتحرر عن العبودية لغير الله. وإذا كانت أهداف القرآن ومقاصده التفصيلية كثيرة ومتعددة فإن أهم هدف من أهدافه هو توحيد الله تعالى وإفراده بالعبادة، قال تعالى: ﴿**وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون. ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون. إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين**﴾(٢) وقال سبحانه : ﴿**وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة**﴾(٣) وهذا الهدف هو الذي أنزلت من أجله الكتب السماوية السابقة التي أنزلها الله على الرسل جميعاً: ﴿ **شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه**﴾(٤) وقال تعالى : ﴿**ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون**﴾(٥)، وقال سبحانه مؤكداً أن هذا الهدف هو الذي أرسل به الأنبياء جميعاً : ﴿**وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون**﴾(٦).

التوحيد تحرير للإنسان من كل تسلط :

وما المراد بإفراد الله تعالى وحده بالعبادة ؟ أو بتعبير أعم وأشمل : ما المراد بـ (لا إله إلا الله) التي دعا إليها القرآن والكتب التى سبقته ؟ إنه تحرير الإنسان من تسلط الإنسان. إنه تحرير الإنسان من كل تسلط، فلا سلطان عليه

---

(١) سورة البقرة : ١ ـ ٢.
(٢) سورة الذاريات : ٥٦ ـ ٥٨.
(٣) سورة البينة : ٥.
(٣) سورة الشورى : ١٣.
(٥) سورة النحل : ٢، وانظر «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان» ٤/١٨٣.
(٦) سورة الأنبياء : ٢٥.

إلا سلطان الله الخالق المالك المتصرف. إنه تحرير للإنسان أيضاً من تسلط نفسه الأمَّارة بالسوء، فتجره بغرائزها إلى غير الأهداف السامية، التي خلقت هذه الغرائز لتحقيقها : ﴿**وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي إن ربي غفور رحيم**﴾(١).

إن الخضوع إلى نظام يحدد الحقوق والواجبات في المجتمع البشري، واستشعار مثل أعلى يضع هذا النظام هو أمر فطري غريزي عند الإنسان؛ لأن الإنسان اجتماعي بطبعه، فطفولته الطويلة تفرض عليه الانتماء لأسرة تحنو عليه، وتؤمِّن له حاجياته، وتدفع عنه العدوان، وتزيل عنه ما يضر به ويؤذيه إلى أن يتسنى له الاعتماد على نفسه، والاكتفاء بذاته مادياً ومعنوياً. وقد تمتد حاجة الإنسان إلى أسرته في هذا القرن بالذات إلى أن يبلغ سن العشرين من عمره، حيث ينهي دراسته الجامعية. والأسرة التي ينتمي إليها الفرد لا تستطيع الانفكاك عن المجتمع؛ نظراً لاحتياجاتها الكثيرة والمتنوعة، التي تزداد كثرةً وتنوعاً مع رقي الإنسان مادياً ومعنوياً، وهذه الاحتياجات توفرها في الجماعة إمكانات ومواهب فردية وجماعية متعاونة. ومع تطور حاجات الإنسان المادية كان لابد للجماعة أن تتعاون مع جماعات بشرية أخرى لتتبادل المنافع، وهو ما أشار إليه القرآن بلفظ (التعارف) في سياق الحديث عن المثل الأعلى للمجتمع البشري كله حيث قال تعالى : ﴿**يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير**﴾(٢)

إذا ثبت لنا بالاستقراء والتجربة أن الإنسان اجتماعي بطبعه وغريزته فمن المعلوم أنه لابد للجماعة من تشريع قائم على الحق والعدل يبين أسس علاقات الأفراد ببعضهم من الناحية الفكرية والماليةوالأدبية والجنسية وغير ذلك، كما يحدد علاقة الجماعة بالجماعات الأخرى. فمن يضع هذا التشريع ؟

---

(١) سورة يوسف : ٥٣.

(٢) سورة الحجرات : ١٣.

من الذي يكون السلطان له، والقلم في يده، يكتب ما شاء، ويرسم مصير الجماعة بأسرها، كما يسجل مصير الفرد في هذه الجماعة؟

هنا يظهر النور الإلهي في تحرير الإنسان من غير سلطان الخالق المالك، هنا تتجلى النعمة الكبرى على الإنسان الذي كرمه الله تعالى فحرره من العبودية لغيره حيث يقول له : ﴿**إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون**﴾(١).

إن تسلط الإنسان على الإنسان في المجتمع البشري هو الطامة الكبرى التي يكون الإنسان فيها عبداً ذليلاً لمخلوق مثله؛ فيأخذ هذا المخلوق من ماله ما شاء، وينال من عرضه ما شاء، ويزهق روحه إذا شاء باسم النظام الذي يصنعه. وقد رأينا ولا نزال نرى شعوباً وجماعات استعلى عليها فرد أو أفراد، فأذاقوها لباس الجوع والذل والهوان باسم التقدم والرقي والنظام الذي وضعه ذاك الفرد أو أولئك الأفراد، ولم يعرف أفراد هذه الشعوب معنى الأمن، مع أنهم قد يقرؤون أو يسمعون شعارات الأمن والكرامة والحرية في كل مكان، حتى في أقبية التعذيب. وقد أشار القرآن إلى نعمة الشبع ونعمة الأمن فقال : ﴿**لإيلاف قريش. إيلافهم رحلة الشتاء والصيف. فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوعٍ وآمنهم من خوف**﴾(٢).

أنواع التسلط والاستعباد :

وتسلط الإنسانْ على الإنسان نوعان : نوع ظاهر واضح، فنسميه تسلطاً مباشراً. ونوع آخر مستتر غير ظاهر، فنسميه تسلطاً غير مباشر، إن سلمت لنا هذه التسمية.

وقد ذكر لنا القرآن نموذجاً من نماذج التسلط المباشر في قصة فرعون الطاغية : ﴿**طسّمّ. تلك آيات الكتاب المبين. نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون. إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها**

---

(١) سورة يوسف : ٤٠.

(٢) سورة قريش.

شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم إنه كان من المفسدين...﴾(١)، **﴿وقال فرعون: يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري فأوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحاً لعلي أطّلع إلى إله موسى وإني لأظنه من الكاذبين. واستكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحق وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون. فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم، فانظر كيف كان عاقبة الظالمين﴾**(٢)، فالحكم لفرعون، والسلطان له، وطريقته مثلى، وسبيله رشاد، وإن كان في حقيقته فساداً. هكذا تنقلب المفاهيم في ظل الطغيان : **﴿قال فرعون : ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد﴾**(٣) وجنود فرعون وأتباعه الذين يتسلطون على الناس في ظل الطاغية يصرفون الناس عن موسى وهارون اللذين يدعوان إلى طاعة خالقهم ومالك أمرهم، ويزعمان أن طريقة فرعون هي المثلى : **﴿قالوا : إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى. فأجمعوا كيدكم ثم ائتوا صفا وقد أفلح اليوم من استعلى﴾**(٤) ولا يكتفي فرعون بادعاء القداسة والألوهية التي زعمها لنفسه في أول أمره، بل ادعى السيادة والربوبية لنفسه بكل وقاحة واستعلاء : **﴿فأراه الآية الكبرى. فكذب وعصى. ثم أدبر يسعى. فحشر فنادى. فقال: أنا ربكم الأعلى. فأخذه الله نكال الآخرة والأولى. إن في ذلك لعبرة لمن يخشى﴾**(٥).

هذا جانب مختصر من تسلط فرعون أخذناه من كتاب الله. وما أكثر الفراعنة في هذا القرن، وإن لم يجرؤ أحدهم أن يدعى الألوهية والربوبية بلسانه، لكنه يجبر الناس على الخضوع لسلطانه واقعياً.

والنوع الآخر من تسلط الإنسان على الإنسان هو تسلط غير مباشر،

---

(١) سورة القصص : ١ ـ ٤.

(٢) سورة القصص : ٣٨ ـ ٤٠.

(٣) سورة غافر : ٢٩.

(٤) سورة طه : ٦٣ ـ ٦٤.

(٥) سورة النازعات : ٢٠ ـ ٢٦.

حيث يكون مستتراً وراء تقديس صنم مـادي أو معنوي. فالصنم المادي هو ما عرف في القـديم والحديث مـن تعظيم وتقديس ـ عبـادة ـ التماثيل الحجـرية والنصب التـذكارية، أو عبـادة الكواكـب، أو عبادة الحيوان مـن بقر أو غيره... ويستتر وراء هذه الأصنـام سلطان البشر الذي يعيـث في الأرض فساداً بـاسم الأصنام المقدسـة. وقد ذكر لنا القرآن نموذجـاً من نماذج التسلط المستتر وراء الأصنام في قصة إبراهيـم ـ عليه السلام ـ مع قـومه، حيث لجأ المتسلطون إلى وسـائل القمـع عنـدمـا انكسر سلطانهم بتكسير إبـراهيـم ـ عليـه السـلام ـ لأصنامهـم التي لا تضر ولا تنفـع : ﴿**قـال : أفتعبدون مـن دون الله مـالا ينفعكم شيئاً ولا يضركم. أف لكم ولما تعبـدون من دون الله أفلا تعقلون. قالوا : حرقـوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين . قلنا: يا نـار كوني برداً وسلاماً على إبرهيم. وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين**﴾(١)

والأصنام المعنويـة : شعارات يضعها بعض شياطين الإنـس، ويزينونها بـزخرف القـول ممـا توحـي بـه شياطين الجن، ليغتر بها الـذيـن لا يؤمنـون بالآخرة، وهم السطحيون والسذج والغافلـون فتصغى إليها أفئدتهم ويندفعون وراءها، وربما يموتـون في سبيلها ﴿**وكذلك جعلنا لكـل نبي عدواً شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً، ولو شاء ربك مـا فعلوه فـذرهم ومـا يفترون. ولتصغى إليـه أفئـدة الذيـن لا يؤمنـون بالآخرة وليرضوه وليقترفوا ما هـم مقترفون. أفغير الله أبتغى حكماً وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلاً...**﴾(٢). وذكرت أن الذين لا يؤمنون بالآخرة هم من السذج السطحيين والغافلين : لأن الذي يعقـل ـ أي يستعمل عقله ـ إذا بلغته دعوة الحق ـ دعوة التحرير لا يمكن أن يكون من الكافرين، من أصحاب السعير وهذا ما يقرُّبـه الكفار في الآخرة : ﴿**وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما**

---

(١) سورة الأنبياء : ٦٦ ـ ٧٠ يقول الشيخ عبد الرحمن السعـدي في تفسرة «تيسير الكريم الرحمن» ٥/٢٤٤ : فحينئذ لما أفحمهم، ولم يبينوا حجة، استعملوا قوتهم في معاقبته.

(٢)سورة الأنعام : ١١٢ ـ ١١٣ تصغى : تميل. انظر معالم التنزيل للبغوي ٢/٤٠٧

كنا في أصحاب السعير. فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير﴾(١).

وهذه الشعارات تخفي وراءها أشكالاً وأنواعاً من التسلط، منها: تسلط الحزب أو الجماعة تحت شعار الديموقراطية، ويخفي وراءه تسلط أصحاب رأس المال، أو تسلط العمال، حيث عاش بعض الناس في ذل وفقر وقهر، كما عرفته البشرية في النظام الشيوعي المنهار. وهناك التسلط الطائفي، والتسلط العرقي، وتسلط الأهواء والشهوات الجنسية وراء شعارات الإلحاد والإباحية والوجودية والمادية وغيرها.

نعم. تسلط الأهواء والشهوات الذي أشار إليه القرآن في قوله تعالى: ﴿**أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلاً. أم تحسب أن اكثرهم يسمعون أو يعقلون، إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً**﴾(٢)، وقال تعالى: ﴿**أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوةً، فمن يهديه من بعد الله، أفلا تذكرون**﴾(٣) ولقد عرفنا في المجتمعات البشرية من يثير الأهواء والشهوات الجنسية بلسانه وقلمه أو تصرفاته؛ ليهبط بالجماعة عن الأهداف السامية إلى انشغال الرجال بالنساء، والنساء بالرجال؛ فلا يبالون بعد ذلك بمن يحكمهم، ولا بما يحكمون به.

المنقذ للبشرية كتاب الله:

كل هذه المآسي التي مرت وتمر بها البشرية إلى يومنا هذا، المنقذ منها كتاب الله ﴿**الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد**﴾(٤) الكتاب الذي أهم أهدافه تحرير الإنسان «لا إله إلا الله» حيث لا سلطان لأحد على أحد إلا سلطان الله الخالق. وإذا كانت هناك طاعة من أحد

---

(١) سورة الملك: ١٠ ـ ١١.

(٢) سورة الفرقان: ٤٣ ـ ٤٤ انظر فتح القدير لمحمد بن علي الشوكاني ٤/٧٧

(٣) سورة الجاثية: ٢٣ انظر النفس البشرية حين تتعبد هواها في ظلال القرآن ٥٢/٣٢٣٠.

(٤) سورة فصلت: ٤٢.

لأحد، تقتضيها التنظيمات الاجتماعية، فهي بأمر الله الخالق المالك، لأنه هو سبحانه الحاكم العدل المطلق، وغيره محكوم. وهو المعبود بحق، ولا معبود سواه. وغير الله عبد له شاء أو أبى : ﴿**ما تعبدون من دونه إلا أسماءً سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان، إن الحكم إلا لله، أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيِّم ولكن أكثر الناس لا يعلمون**﴾(١).

فهذا المنهج القويم في الحرية الحقيقية فرَّق بوضوح ودقة متناهية بين طاعة الخضوع والعبادة في أسس الدين والمنهج الربانى، وبين الطاعة التنظيمية التي تقتضيها العلاقات الاجتماعية المتجددة، كطاعة الوالدين، وطاعة الأمير، وغيره ممن له حق الطاعة في غير معصية الله. فعبادة الله تعني الطاعة التامة له مع الخضوع والتذلل، والاستسلام الكامل والانقياد التام لكل ما أمر به الله من أحكام تعبدية وأخلاقية واجتماعية ومالية وسياسية، وغير ذلك.

من أدلة القرآن على التحرر :

وكل شيء في الوجود يدل الإنسان على أن الله هو المعبود، ولا معبود بحق سواه، وهذه هي الفطرة التي خلق الله الناس عليها، ﴿**فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون**﴾(٢).

وقد ذكر القرآن أدلة كثيرة تدل على أن العبادة لله، ولايستحقها سواه، لينقذ الفطرة البشرية مما يتغشاها في بيئتها المنحرفة بفعل شياطين الإنس والجن، ومن هذه الأدلة ما يلي:

١ ـ الله هو الخالق للإنسان ولكل شيء يحتاجه الإنسان في هذا الكون، والعاقل يعبد الخالق لا المخلوق، قال تعالى : ﴿**يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذي من قبلكم لعلكم تتقون. الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناءً، وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم فلا**

---

(١) سورة يوسف : ٤٠.

(٢) سورة الروم : ٣٠.

تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون﴾(١)، وقال سبحانه : **﴿أيشركون مالا يخلق شيئاً وهم يخلقون. ولا يستطيعون لهم نصراً ولا أنفسهم ينصرون﴾**(٢) وقال سبحانه : **﴿أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون﴾**(٣) وبين الله سبحانه أن الذي يختار المنهج وغيره ويحكم هو الخالق لا المخلوق : **﴿وربك يخلق ما يشاء ويختار، ما كان لهم الخيرة، سبحان الله وتعالى عما يشركون﴾**(٤) وغير ذلك من الآيات.

٢ ـ الذي يستحق الطاعة ويضع المنهج الكامل هو العليم لاغيره، والله سبحانه عليم بكل شيء، وغيره لا يعلم إلا ما علمَّه الله قال تعالى : **﴿هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات وهو بكل شيء عليم﴾**(٥) وقال تعالى : **﴿يبين الله لكم أن تضلوا والله بكل شيء عليم﴾**(٦) وقال سبحانه : **﴿قل أتعبدون من دون الله مالا يملك لكم ضراً ولا نفعا، والله هو السميع العليم﴾**(٧)، وقال سبحانه : **﴿وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾**(٨). وغير ذلك من الآيات.

٣ ـ الله هو المالك لكل شيء وغيره مملوك، ومن حق المالك أن يتصرف في ملكه، قال تعالى : **﴿ألم تعلم أن الله له ملك السماوات والأرض، ومالكم من دون الله من ولي ولا نصير﴾**(٩) وقال تعالى : **﴿ولله ملك السماوات والأرض، والله على كل شيء قدير﴾**(١٠) وقال سبحانه : **﴿تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير﴾**(١١). والآيات التي تدل على ملك الله وقدرته كثيرة.

---

(١) سورة البقرة : ٢١ ـ ٢٢.
(٢) سورة الأعراف : ١٩١ ـ ١٩٢.
(٣) سورة النحل : ١٧.
(٤) سورة القصص : ٦٨.
(٥) سورة البقرة : ٢٩.
(٦)سورة النساء : ١٧٦.
(٧) سورة المائدة : ٧٦.
(٨) سورة البقرة.
(٩) سورة البقرة : ١٠٧.
(١٠) سورة آل عمران : ١٨٩.
(١١) سورة الملك : ١.

وهكذا كل أسماء الله تعالى وصفاته التي ذكرها الله في كتابه تدل على أن الله هو المعبود بحق، ولا معبود سواه؛ فالعبادة والطاعة للخالق لا للمخلوق، للعليم لا للجاهل، للمالك لا للمملوك، للقاهر لا للمقهور ﴿**وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير**﴾(١)...

القرآن يوفّق بين طاعة الله والطاعة التنظيمية للمخلوق :

وطاعة غير الله إنما تكون بأمر الله، فلا طاعة لمخلوق في معصية الله، ولو كان أباً أو أماً أو حاكماً. قال تعالى عن طاعة الوالدين بعد أن أمر ببرهما والإحسان إليهما : ﴿**وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفاً، واتبع سبيل من أناب إليَّ ثم إليَّ مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون**﴾(٢) وقال تعالى في طاعة الأمراء : ﴿**يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم، فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر، ذلك خير وأحسن تأويلا**﴾(٣)، فعطف طاعة أولي الأمر على طاعة الله ورسوله، ولم يجعل لهم طاعة مستقلة، ثم إن طاعة الرسول ﷺ ليست طاعة عبادة، إنما يطاع لأنه رسول الله فيبلغ أمر الله، وأمر الله هو الذي يطاع في الحقيقة.

وقال رسول الله ـ ﷺ ـ : «السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره ما لم يؤمر بمعصية، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولاطاعة»(٤) وعن علي ـ رضي الله عنه ـ قال : «بعث النبي ـ ﷺ ـ سرية وأمر عليهم رجلاً من الأنصار وأمرهم أن يطيعوه، فغضب عليهم وقال : أليس قد أمَرَ النبي ـ ﷺ ـ

---

(١) سورة الأنعام : ١٨.

(٢) سورة لقمان : ١٥.

(٣) سورة النساء : ٥٩.

(٥) رواه البخاري عن عبدالله بن عمرو ٨/١٠٥ كتاب الأحكام، باب السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية، طبع دار العامرة ـ استانبول. وأخرجه أبو داود ١٢/١٣٥ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان.

أن تطيعوني، قالوا : بلى، قال : عزمت عليكم لَمَا جمعتم حطباً وأوقدتم ناراً، ثم دخلتم فيها، فجمعوا حطباً فأوقدوا ناراً، فلما همّوا بالدخول، فقام ينظر بعضهم إلى بعض، فقال بعضهم: إنما تبعنا النبي ـ ﷺ ـ فراراً من النار، أفندخلها ؟! فبينما هم كذلك إذ خمدت النار وسكن غضبه فذكر للنبي ـ ﷺ ـ فقال : لو دخلوها ما خرجوا منها أبداً، إنما الطاعة في المعروف»(١)

الإنسان عبدالله شاء أم أبى :

وإذا كان بعض الناس نزع عن الفطرة السليمة، وخرج عن العبودية لله، فعبد غير الله، أو أشرك معه في عبادته غيره، فليعلم كل إنسان أنه عبدٌ لله خاضع لسلطانه بوصفه مخلوقاً من مخلوقاته في هذا الكون الفسيح، وسواء عليه رضي أم كره؛ لأن العبودية لله نوعان : عبودية اضطرارية، وعبودية اختيارية.

فالعبودية الاضطرارية يشترك فيها الإنسان مع الكائنات جميعها. خلق الله كلاً منها كما شاء، وكيف شاء ـ جماداً أو حيواناً أو إنساناً ـ ذكراً أو أنثى، على الصفة التي شاء. كما خلق الله لكل مخلوق طرق تكاثره وسبل معايشه كما شاء، قال تعالى : ﴿**ولقد مكناكم في الأرض وجعلنا لكم فيها معايش، قليلاً ما تشكرون**﴾(٢)، وقال سبحانه : ﴿**والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل شيء موزون. وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين. وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزِّله إلا بقدر معلوم**﴾(٣).

وهذا النوع من العبودية يعلمه كل إنسان، ويشعر به في ذاته وفيما حوله، حيث يعلم أنه خاضع لسلطان لا يستطيع الخروج عن إرادته، هو

---

(١) رواه البخاري في صحيحه ٨/١٠٦ كتاب الأحكام، باب السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية، وأبو داود في كتاب الجهاد باب في الطاعة، انظر بذل المجهود ١٢/١٣٤.

(٢) سورة الأعراف : ١٠.

(٣) سورة الحجر : ١٩ ـ ٢١.

سلطان الله ـــ خالق كل شيء ـ ولـو أنكر بعض الملاحدة سلطـان الله أو جحد وجوده ظلماً واستعلاءً، فإن هذا إنكار الألسنة فقط، والقلوب والأنفس مستيقنة بوجود الله والخضوع لسلطانه، كما قال تعالى : ﴿ **وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلوا، فانظر كيف كان عاقبة المفسدين**﴾(١).

. وهذا يذكرني بالذي دعا الله مخلصاً من قلبه بعد أن كان ينكر وجوده، ليلة كنا مسافرين بالطائرة من القاهرة إلى دمشق، وكانت تحلق بنا فوق البحر الأبيض المتوسط، والقمر ينير ما تحتنا من غيوم تتبدو وكأنها جبال من القطن، وكنا نتنـاول طعام العشاء، وبـالقرب منا رجـل يجادل صاحبه الـذي بجواره، ويزعم إنكار وجود الله، وأن هذا الكون وجـد هكذا بدون خالق. نحن على هذه الحال إذا بالطائرة تهوي، وإذا الـرجل الذي كان ينكر وجود اللـه ينادي بأعلى صوته : ﴿يـا ألله﴾، كما نادى ركاب الطـائرة جميعاً. ثم عادت الطـائرة إلى ما كانت عليـه، بعد أن هوت أكثر مـن مئتي متر، ولم يكن ذلك جيبـاً هوائياً، إنما كان ابتـلاءً ربانيـاً؛ لأن الجيوب الهوائيـة تكون فـوق الجبال لا فـوق البحار. وذكرت يوم ذاك قول الله تعالى : ﴿**هو الذي يسيركم في البر والبحر حتى إذا كنتم في الفلك وجـرين بهم بريح طيبـة وفرحوا بها جاءتها ريـح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنـوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الديـن : لئن أنجيتنا من هـذه لنكونن من الشـاكرين. فلما أنجاهـم إذا هم يبغون في الأرض بغير الحق، يا أيها الناس إنما بغيكـم على أنفسكم، متاع الحياة الدنيا، ثم إلينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون**(٢)

أما العبـودية الاختيـارية فهـي خاصـة بمن يـؤمن بـالكتاب المنـزل من عنداللـه، حيث يختـار طاعـة الله واتبـاع شرعه فيما أنـزل عن معـرفة وحـب وإخلاص.

ويشير الله ـ سبحـانه ـ في كتابـه إلى نوعي العبوديـة لله، والاستسلام

---

(١) سورة النمل : ١٤.

(٢) سورة يونس : ٢٢ ـ ٢٣.

(٣) سورة آل عمران : ٨٣.

والانقياد له فيقول : ﴿**أفغير دين الله يبغون، وله أسلم من في السماوات والأرض طوعا وكرهاً وإليه يرجعون**﴾(٣).

فهدف كتاب الله تحرير البشرية من الطواغيت،(١) بعد أن يعرِّفها معبودها الحق بأسمائه الحسنى وصفاته العليا.

عمل المسلمين بكتاب الله واهتمامهم به :

وإذا انتقلنا إلى الجانب العملي،فقد كان رسول الله ـ ﷺ ـ يتحرك بالقرآن، فيدعو الناس إلى الله، ويدعوهم إلى العمل بكتابه، وينذرهم ويجاهدهم بكتابه، قال تعالى : ﴿**فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهاداً كبيراً**﴾(٢) وكتب رسول الله ـ ﷺ ـ إلى كسرى وإلى قيصر، وإلى النجاشي، وإلى كل جبار، يدعوهم إلى الله تعالى، وليس بالنجاشي الذي صلى عليه النبي(٣). وكتابه ـ ﷺ ـ إلى هرقل عظيم الروم :

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد عبدالله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم.

سلام على من اتبع الهدى. أما بعد : فإني أدعوك بدعوة الإسلام، أسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فعليك إثم الأريسيِّين. و«يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به

---

(١) الطواغيت جمع طاغوت، ويطلق على الكاهن والشيطان، وكل رأس في الضلالة، وكل ما عبد من دون الله فهو طاغوت. وأصله من طغا يطغى ويطغو طغيانا؛ أي جاوز الحد. وكل مجاوز حده في العصيان فهو طاغ. انظر الصحاح للجوهري ٢٤١٢/٦ وانظر القاموس المحيط وغيره. وانظر الكلام عن الطواغيت في كتب التفسير.

(٢) سورة الفرقان : ٥٢، وانظر تفسير الآية في التحرير والتنوير ٥٣/١٩، وانظر كلام أبي السعود في تفسيره : ١٨٩/٤ «وجاهدهم به» أي بالقرآن بتلاوة ما في تضاعيفه....

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه عن أنس رضي الله عنه ١٦٦/٥.

(٤) أخرجه البخاري في كتاب التفسير سورة آل عمران، باب «قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء...» ١٦٩/٥ وأخرجه مسلم ١٦٥/٥، والآية من سورة آل عمران : ٦٤.

شيئا، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أربابا من دون الله، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون»(٤).

وكان ـ ﷺ ـ يرسل كل وال من ولاته إلى الأمصار داعياً لا جابياً، أباً رحيماً لا رباً متغطرساً. فقد كتب لمعاذ بن جبل ـ رضي الله عنه ـ حين ولاه على اليمن يقول :

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا عهد من محمد بن عبدالله رسول الله إلى معاذ بن جبل وأهل اليمن حين ولاه أمرهم فيهم.

أمرتُه بتقوى الله العظيم والعمل بكتابه وسنة رسوله، وأن يكون لهم أباً رحيماً يتفقد صلاح أمورهم، يجزي المحسن بإحسانه، ويأخذ على يد المسيء بالمعروف. وإني لم أبعث عليكم معاذاً رباً، وإنما بعثته أخاً ومعلماً ومنفذاً لأمر الله تعالى، ومعطياً الذي عليه من الحق ممَّا فعل. فعليكم له السمع والطاعة والنصيحة في السر والعلانية، فإن تنازعتم في شيء أو ارتبتم فيه فردوه إلى الله، وإلى كتابه عندكم، فإن اختلفتم فردوه إلى الله وإلى الرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا.

وأمرته أن يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، وأن يرضى لرضاء الله، وأن يغضب لغضب الله. فمن شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله وأسلم بالسمع والطاعة فهو المسلم، له ما للمسلمين وعليه ما عليهم، ومن أقام على دينه وأقر بالجزية تُرك ودينه، وله ذمة الله وذمة رسوله وذمة المؤمنين، لا يقتل ولا يسبى، ولا يكلف إلا طاقته، ولا يفتتن لترك دينه. والله له بالمرصاد...»(١).

وعرف أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ أهمية هذا الكتاب العظيم. فما إن توفي النبي ـ ﷺ ـ حتى جمعوه في مصحف واحد، بعد أن كان مكتوباً بشكل

---

(١) الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، جمع محمد حميد الله ص٢١٣.

متفرق على أدوات الكتابة التي كانت متوافرة لديهم يومئذ، وانكبوا عليه علماً وعملاً.

كما اهتموا بسنة النبي ـ ﷺ ـ لأنها مبينة للقرآن وشارحة له، قال تعالى : ﴿**وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون**﴾(١)، وقال تعالى : ﴿**وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب**﴾(٢)، فأقبلوا ـــ رضوان الله عليهم ـــ على سنته حفظا وكتابة وعملاً، وكان بعض المتقنين للكتابة منهم يكتبون حديثه ـــ ﷺ ـ في حياته. عن عبدالله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنهما ـ قال : «كنت أكتب كل شيء سمعته من رسول الله ـ ﷺ ـ أريد حفظه، فنهتني قريش، وقالوا : تكتب كل شيء ورسول الله ـ ﷺ ـــ بشر، يتكلم في الغضب والرضا ؟! قال : فأمسكت عن الكتاب، حتى ذكرت ذلك لرسول الله ـ ﷺ ـ فأومأ بإصبعه إلى فيه، وقال : اكتب، والذي نفسي بيده، ما يخرج منه إلا حق»(٣)، وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال : «ما من أصحاب النبي ـ ﷺ ـ أحد أكثر حديثاً عنه مني إلا ما كان من ابن عمرو، فإنه كان يكتب ولا أكتب»(٤).

وانطلق المسلمون يحررون الناس بهذا الكتاب، فيخرجونهم من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده لا شريك له (٥) لا يكرهون أحداً على الدخول في دين الحق، ولا يقتلون الناس حقدا وتسلطاً على أموالهم وأعراضهم. إنما أمرهم هذا الكتاب أن يقاتلوا طواغيت الأرض ليكسروا حكمهم ويزيلوا ظلمهم وطغيانهم. ففي معركة القادسية طلب رستم قائد جيش الفرس من سعد بن أبي وقاص قائد جيش المسلمين أن يبعث إليه برجلٍ عاقلٍ عالمٍ بما يسأله عنه، فبعث إليه

---

(١) سورة النحل : ٤٤.

(٢) سورة الحشر : ٧

(٣) أخرجه أبو داود في كتاب العلم، باب في كتابة العلم. وهو حديث حسن.

(٤) أخرجه البخاري في كتاب العلم، باب كتابة العلم، والترمذي في العلم، باب ما جاء في الرخصة في كتابة العلم.

(٥) انظر «في ظلال القرآن» لسيد قطب ٦/ ٨٩٠.

المغيرة بن شعبة ـ رضي اللـه عنه ـ فلما قدم عليه جعل رستـم يقول له : إنكم جيراننا وكنـا نحسن إليكم ونكف الأذى عنكـم، فارجعوا إلى بلادكـم ولا نمنع تجارتكم من الـدخول إلى بلادنا. فقـال له المغيرة : إنا ليس طلبنـا الدنيا، وإنما همنا وطلبنـا الآخرة، وقد بعـث الله إلينا رسولاً قـال له : إني قد سلطـت هذه الطائفة على من لم يدن بديني فأنا منتقم بهم منهم، وأجعل لهم الغلبة ما داموا مقريـن به، وهو ديـن الحق، لا يرغب عنـه أحد إلا ذلَّ، ولا يعتصم بـه إلا عز. فقال لـه رستم: فما هـو ؟ فقال : أمـا عموده الـذي لا يصلح شيء منـه إلا به فشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول اللـه، والإقرار بما جاء من عندالله، فقال : ما أحسن هذا ؟ و أي شيء أيضاً ؟ قال : وإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة اللـه، قال : وحسن أيضـاً، وأي شيء أيضاً ؟ قال : والنـاس بنو آدم، فهم إخـوة لأب وأم. قال : وحسـن أيضاً. ثم قـال رستم : أرأيـت إن دخلنا في دينكم أترجعون عن بلادنا ؟ قـال : إي والله ثم لا نقرب لبلادكم إلا في تجارة أو حاجة. قـال : وحسن أيضاً. ولما خرج المغيرة من عنده ذاكـر رستم رؤساء قومه في الإسلام فأنفوا ذلك وأبوا أن يدخلوا فيه.

ولما طلب رستـم رجلاً آخر أرسـل إليه سعـد بن أبي وقاص ربعـي بن عامر، فقال رستم : ما جاء بكم ؟ قـال ربعي : الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الـدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فـأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعـوهم إليه، فمن قبل ذلـك قبلنا منه ورجعنا عنه...(١).

وسنذكر طرفاً من عهد أمير المؤمنين عمـر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ لنصـارى المدائن وفارس، لنـؤكد أن تحرك المسلمين بـالقـرآن إنما هو تحريـر للشعوب من الظلـم والطغيان؛ فإذا انتهى المسلمـون من إزالة الطواغيـت تركوا الناس وما يدينون بعد أن يقيموا فيهم الحق والعدل :

«هـذا كتاب مـن عبداللـه عمر بـن الخطاب أمير المؤمنين : لأهـل المدائن،

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ٧/ ٣٩ ـ ٤٠/١.

وبهرسير، والجاثليق بها، وقسانها، وشمامستها. جعله عهداً مرعياً، وسجلاً منشوراً، وسنةً ماضيةً فيهم، وذمةً محفوظة لهم. فمن كان عليها كان بالإسلام متمسكا، ولما فيه أهلاً. ومن ضيعه ونكث العهد الذي فيه، وخالفه وتعدى ما أمر به، كان لعهد الله ناكثاً، وبذمته مستهيناً، سلطاناً كان أو غيره من المسلمين.

أما بعد : فإني أعطيتكم عهد الله وميثاقه، وذمة أنبيائه ورسله، وأصفيائه وأوليائه من المسلمين؛ وعلى أنفسكم وأموالكم وعيالاتكم وأرجلكم (كذا)، وأماني من كل أذىً. وألزمت نفسي أن أكون وراءكم، ذاباً عنكم كل عدو يريدني وإياكم، بنفسي وأتباعي وأعواني والذابين عن بيضة الإسلام، وأن أعزل عنكم كل أذى في المؤن التي يحملها أهل الجهاد من الغارة، فليس عليكم جبر ولا إكراه على شيء من ذلك.

ولا يغير أسقف من أساقفتكم ولا رئيس من رؤسائكم، ولا يهدم بيت من بيوت صلواتكم ولا بيعة من بيعكم، ولا يدخل شيء من بنائكم إلى بناء المساجد ولا منازل المسلمين، ولا يعرض لعابر سبيل منكم في أقطار الأرض، ولا تكلفوا الخروج مع المسلمين إلى عدوهم لملاقاة الحرب. ولا يجبر أحد ممن كان على ملة النصرانية على الإسلام كرهاً، لما أنزل الله في كتابه : ﴿**لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي**﴾(١) ﴿**ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن**﴾(٢) وتكف أيدي المكروه عنكم حيث كنتم. فمن خالف ذلك فقد نكث عهد الله وميثاقه، وعهد محمد ـ ﷺ ـ وخالف ذمة الله والعهد الذي استوجبوا به حقن الدماء، واستحقوا أن يذب عنهم كل مكروه، لأنهم نصحوا أو صلحوا ونصروا الإسلام.

ولي شرط عليهم : ألا يكون أحد منهم عيناً لأحد من أهل الحرب على أحد من المسلمين في سر ولا علانية، ولا يؤوي في منازلهم عدواً للمسلمين...»(٣).

---

(١) سورة البقرة : ٢٥٦.

(٢) سورة العنكبوت : ٤٦.

(٣) الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة ص١٩٥.

الخاتمة

وفي الختام : فإن الله سبحانه أنزل الكتب على رسله رحمةً بالناس ليحررهم من سلطان المتسلطين، ومن سلطان الأهواء والشهوات، التي تدفع بالنفس الأمارة بالسوء لسلوك سبل شياطين الإنس والجن، التي تفسد مصلحةالفرد والمجتمعات الإنسانية.

وكتب الله حين تحرِّرهم من الخضوع والتبعية لغير الله تبارك وتعالى، فإنها تعرفهم على معبودهم الحق بأسمائه الحسنى وصفاته العليا، وترسم لهم الطريق القويم لعبادته وطاعته، طريق الخير والسعادة والرشاد.

ولا يفوتني أن أقول : إن هذه الكتب إذا حرفت نصوصها، أو غيرت معانيها؛ فإنها تكون وسيلة للتسلط وأكل الدنيا بالدين. حيث لم تعد بعد تحريفها كتب حق وهداية، إنما هي كتب كتبتها أيدي البشر، قال تعالى : ﴿**فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً، فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون**﴾(١).

والقرآن آخر الكتب السماوية نزولاً، وهو مصدق لما سبقه من الكتب ومهيمن عليها؛ أي مظهر ما فيها من تغيير وتبديل، قال تعالى : ﴿**وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه، فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق..**﴾(٢) ونظراً لكونه كتاباً للإنسانية جميعاً فقد بين الله فيه للإنسان كل ما يحتاج إليه، قال تعالى : ﴿**ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدىً ورحمةً وبشرى للمسلمين**﴾(٣) وأكمل ــ سبحانه ــ النعمة على الإنسانية فتكفل بحفظه من التحريف والتغيير فقال سبحانه : ﴿**إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون**﴾(٤)

والحمدلله رب العالمين.

---

(١) سورة البقرة : ٧٩.
(٢)سورة المائدة : ٤٨.
(٣) سورة النحل : ٨٩.
(٤) سورة الحجر : ٩.

المراجع

١ ـ البداية والنهاية، لأبي الفداء الحافظ إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي طبع مطابع الأهرام التجارية.

٢ ـ تفسير التحرير والتنوير للشيخ محمد الطاهر بن عاشور ـ الدار التونسية للنشر.

٣ ـ تفسير أبي السعود ـ إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم ـ لأبي السعود محمد العمادي ـ نشر مكتبة الرياض الحديثة بالرياض.

٤ ـ تفسير جامع البيان في تفسير القرآن، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، طبع عام ١٤٠٧هـ ـ١٩٨٧م.

٥ ـ تفسير في ظلال القرآن، لسيد قطب ـ دار الشروق ـ الطبعة العاشرة ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م.

٦ ـ تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان، لنظام الدين الحسن بن محمد ابن حسين النيسابوري ـ بهامش تفسير الطبري ـ طبع عام ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.

٧ ـ تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي، طبع ونشر الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد بالرياض.

٨ ـ الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبدالله محمد بن أحمد القرطبي ـ نشر دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ـ القاهرة ١٣٨٧هـ ـ ١٩٦٧م.

٩ ـ الجامع الصحيح ـ صحيح البخاري ـ لأبي عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري ـ دار الطباعة العامرة.

١٠ ـ الجامع الصحيح ـ صحيح مسلم ـ لأبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري ـ المطبعة العامرة.

١١ ـ السنن، لأبي داود سليمان بن الأشعث الأزدي السجستاني ـ ضمن كتاب بذل المجهود في حل أبي داود ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان.

١٢ ـ سنن الترمذي، لأبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي.

١٣ ـ الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، لإسماعيل بن حماد الجوهري ـ الطبعة الثانية ١٤٠٢هـ ـ١٩٨٢م.

١٤ ـ فتح القدير الجامع بين فَنَّي الرواية والدراية من علم التفسير لمحمد بن علي بن محمد الشوكاني ـ دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

١٥ ـ القاموس المحيط، لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت.

١٦ ـ المكتبات في العالم، للدكتور محمد ماهر حمادة ـ دار العلوم للطباعة والنشر ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م.

١٧ ـ المكتبات ورسالتها لحسن رشاد ـ نشر دار الفكر العربي ـ الطبعة الثالثة.

١٨ ـ معالم التنزيل في التفسير والتأويل، لأبي محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوي ـ دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

١٩ ـ الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، جمع محمد حميد الله ـ نشر دار النفائس ـ بيروت ـ الطبعة الرابعة.